لَـعَـظُـمْـتَ حَـتَّـى لَـوْ تَـكُـونُ أَمَـانَـةً
مَـا كَـانَ مُـؤْتَـمَـنـاً بِـهَـا جِـبْـرِيـنُ[١]
بَـعْـضُ الْـبَـرِيَّـةِ فَـوْقَ بَـعْـضٍ خَـالِـيـاً
فَـإِذَا حَـضَـرْتَ فَـكُـلُّ فَـوْقٍ دُونُ[٢]

يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

يمدح أبا عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه بن محمد الخطيب الخصيبي وهو يومئذٍ يتقلد القضاء بأنطاكية:

[البسيط]

أَفَـاضِـلُ الـنَّـاسِ أَغْـرَاضٌ لَـدَى الـزَّمَـنِ
يَـخْـلُـو مِـنَ الـهَـمِّ أَخْـلَاهُـمْ مِـنَ الْـفِـطَـنِ[٣]
وَإِنَّـمَـا نَـحْـنُ فِـي جِـيـلٍ سَـوَاسِـيَـةٍ
شَـرٌّ عَـلَـى الْـحُـرِّ مِـنْ سُـقْـمٍ عَـلَـى بَـدَنِ[٤]

---

(١) جبرين: لغة في جبريل. يُردف الشاعر منوّهاً بدور الأمير؛ فلو كانت أمانة، ولعظمة الأمانة ما كان باستطاعة جبريل عليه السلام أن يقوم بتأديتها كما يقوم بها الأمير؛ وذلك من مغالاة الشاعر.

(٢) البرية: الخلق. يُفضل الشاعر الأمير على سائر الناس، فلو خلا الوجود منه، لكان البشر مختلفين طبقات متعدّدة، وفي حال وجوده استوى البشر، فكانوا دونه منزلة وقصّروا في الشرف والسيادة والكرم والشجاعة.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٢، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. يروى «لذا» بدلاً من «لدى». الأغراض الواحد غرض: هدف. الفطن، الواحدة فِطنة: الذكاء. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع حكمي، مفاده أن أفاضل البشر يتعرّضون دائماً لمعاكسات الزمن فيُبتلون بالنكبات والمحن، وذلك لشدّة أحاسيسهم بكلّ ما يتعرّضون له من مآسٍ، وأما سواهم من البشر الذين يفتقدون إلى العقول الراجحة فينعمون بجهلهم فلا يهتمون بعاديات الزمن، ولذا يعيشون سعداء بمصائرهم.

(٤) الجيل من البشر: أهل زمان واحد. سواسية: متساوين. الحرّ: من كرمت عليه نفسه. السقم: المرض. ينظر الشاعر إلى جيله نظرة ازدراء وتحيّز ضده، فأهله قد جُبلوا على الشرّ، يفعلونه بما اعتادوا عليه، لذا فلا يُرجى منهم خير أبداً، وعليه فخير الكريم أن يحذرهم ويتجنّب مخالطتهم، إنهم بمثابة حالة مرضيّة مزمنة لا علاج لها.

حَـوْلـي بِـكُـلِّ مَـكَـانٍ مِـنْـهُـمُ خِـلَـقٌ
تُـخْـطِي إذا جِـئْـتَ فـي اسْـتِـفْـهَـامِـهَـا بِـمَـنِ (١)
لَا أَقْـتَـرِي بَـلَـدًا إِلَّا عَـلَـى غَـرَرٍ
وَلَا أَمُـرُّ بِـخَـلْـقٍ غَـيْـرِ مُـضْـطَـغِـنِ (٢)
وَلَا أُعَـاشِـرُ مِـنْ أَمْـلَاكِـهِـمْ أَحَـدًا
إِلَّا أَحَـقَّ بِـضَـرْبِ الـرَّأْسِ مِـنْ وَثَـنِ (٣)
إِنِّـي لَأَعْـذِرُهُـمْ مِـمَّـا أُعَـنِّـفُـهُـمْ
حَـتَّـى أُعَـنِّـفَ نَـفْـسِـي فـيـهِـم وَأَنِـي (٤)
فَـقْـرُ الْـجَـهُـولِ بِـلَا عَـقْـلٍ إِلَـى أَدَبٍ
فَـقْـرُ الْـحِـمَـارِ بِـلَا رَأْسٍ إِلَـى رَسَـنِ (٥)

---

(١) يروى «حلق» بالحاء بدلاً من «خلق» وهم القوم يجتمعون على خلاف. الخِلق، الواحدة خلقة: الصورة التي يخلق اللّه تعالى عليها البشر. يرى الشاعر حيثما التفت أشباحاً بشرية لا لون لها ولا شكل؛ إنهم يتعادون ويتقاتلون كالبهائم بوحشية، ولذا فمن الخطأ الفاحش أن يُسأل عنهم بمن، بل يُسأل عنهم بما لمساواتهم للحيوانات.

(٢) أقتري: أتتبّع. الغرر: المخاطرة بالنفس وتعريض للمخاطر. مضطغن: حاقد. يصوّر الشاعر ما عليه من رعب من البشر، فحيثما حلّ أو ارتحل وجد في النفوس حسداً وكراهية، بهما يُحاربونه لجهلهم ما امتاز به عنهم من مواهب جعلته يتبوّأ مكانة عالية.

(٣) و (٤) الأملاك، الواحد ملك. الوثن: الصنم. ينظر الشاعر إلى ملوك زمانه نظرة كراهية واستعلاء، فلم يجد فيهم من يستحقّ احترامه، فالكلّ يستحقون الإهانة والمذلّة وضرب رؤوسهم بالأحذية، فالوثن أفضل منهم وقد يبجّل بالنسبة إليهم. ورغم هذا الموقف من الملوك وأولي الأمر؛ فالمتنبي يتراكض لمدحهم فيُسبغ عليهم جميل الصفات، وهنا يتساءل المرء إذا ما كان الشاعر متلوّناً متناقضاً مع ما يتّخذه من مواقف، أم أنه الكذب الصراح؟ وهو لا يني يُفتش لهم عن عذر، فإذا به يهتدي إلى أن جهلاً مركباً فيهم جعلهم لا يُقدّرون مزاياه، ولو كان صادقاً في مدحاه لما طلبوا منه مدحهم. ومع ذلك فالشاعر يعتبر نفسه مقصّراً في ما يقوله عن هؤلاء الملوك.

(٥) يروى «بلا عقل» بدلاً من «بلا قلب». الجهول: الجاهل. الرسن: قياد الدّابة. يرى =

وَمُدْقِعِينَ بِسُبْرُوتٍ صَحِبْتُهُمُ
عَارِينَ مِنْ حُلَلٍ كَاسِينَ مِنْ دَرَنِ(١)
خُرَّابِ بَادِيَةٍ غَرْثَى بُطُونُهُمُ
مَكْنُ الضِّبَابِ لَهُمْ زَادٌ بِلَا ثَمَنِ(٢)
يَسْتَخْبِرُونَ فَلَا أُعْطِيهِمِ خَبَرِي
وما يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ مِنَ الظِّنَنِ(٣)
وَخَلَّةٍ فِي جَلِيسٍ أَتَّقِيهِ بِهَا
كَيْمَا يُرَى أَنَّنَا مِثْلَانِ فِي الوَهَنِ(٤)

= الشاعر أن الجهل آفة عمياء؛ فالجاهل يفتقد إلى عقل يهتدي به فيميّز بين الأمور، الصائب منها والخطأ، فهذا لا يُلام تماماً كالحمار الذي فقد رأسه، فهو لا يحتاج إلى رسن يستهدي به طريقه ولا يلتمسها.

(١) المدقع: الفقير الذي لا يملك مالاً. السبروت: الأرض لا نبات فيها. الحلل، الواحدة حلة: وهي عبارة عن رداء وقميص. الدرن: القذارة والأوساخ. يذكر الشاعر أنه التقى بفتية فقراء يفترشون الأرض عارين لا ثياب لهم، وقد اكتسوْا بالدرن فغطّى جلودهم، فصحبهم.

(٢) الخراب، الواحد خارب: سرّاق الإبل خاصة. غرثى: جائعين لا شيء في بطونهم. مكن الضباب، الواحدة مكنة: بيضها. يصف الشاعر هؤلاء الفتية المتلصّصة أنهم يسرقون الإبل في الصحاري، لا زاد لهم إلّا ما يحصلون عليه من بيض الضباب، بلا ثمن.

(٣) طاش السهم: مال عن صوب الرمية فلم يصب هدفه. الظنن، الواحدة ظنة: ظن السوء بالمرء. يُتابع الشاعر حديثه عن هؤلاء الفتية، إنهم يستعلمون عن الشاعر، فلا يُطلعهم على حقيقته، ولكنهم لفطانتهم استدركوا أن مصاحبهم هو المتنبي الشاعر، ولقد أخفى عنهم خبره مخافة الغدر به.

(٤) يروى «التقية» بدلاً من «أتّقيه». الخلة: الخصلة. الوهن: الضعف. مخافة الحسد يحترس الشاعر ويتّقي أن يُعلن عن حقيقة أمره، فإذا به، إذا ما التقى بجليس غريب عنه قلّده في حركاته وسكناته، حتى في حديثه أنه المتنبي الشاعر، حتى إنه يُبدي ضعفاً وهواناً وبذلك يخدعه ويأمن شرّه.

وَكِـلْـمَـةٍ فـي طَـرِيـقٍ خِـفْـتُ أُعْـرِبُـهَـا
فَـيُـهْـتَـدَى لِـي فَـلَـمْ أَقْـدِرْ عَـلَـى الـلَّـحَـنِ[١]
قَـدْ هَـوَّنَ الـصَّـبْـرُ عِـنْـدِي كُـلَّ نَـازِلَـةٍ
وَلَـيَّـنَ الْـعَـزْمُ حَـدَّ الـمَـرْكَـبِ الـخَـشِـنِ[٢]
كَـمْ مَـخْـلَـصٍ وَعُـلًـى فـي خَـوْضِ مَـهْـلَـكَـةٍ
وَقَـتْـلَـةٍ قُـرِنَـتْ بِـالـذَّمِّ فـي الْـجُـبُـنِ[٣]
لَا يُـعْـجِـبَـنَّ مَـضِـيـمـاً حُـسْـنُ بِـزَّتِـهِ
وَهَـلْ تَـرُوقُ دَفِـيـنـاً جَـوْدَةُ الْـكَـفَـنِ[٤]
لِـلَّـهِ حَـالٌ أُرَجِّـيـهَـا وَتُـخْـلِـفُـنـي
وَأَقْـتَـضِـي كَـوْنَـهَـا دَهْـرِي وَيَـمْـطُـلُـنـي[٥]

(١) يُنوّه الشاعر بفصاحته، ومن تقيّته أنه يُؤثر ألّا يُعرب كيلا يُعرف ولكنّ سليقته تأبى عليه ذلك، فإذا به يُعرب بلا وعي منه، لذا فهو لا يقدر على اللحن وترك ما اعتاد عليه من فصاحة.

(٢) النازلة: النائبة والمصيبة. يفخر الشاعر بأنه شديد أمام مصائب الدهر التي تُفاجئه، فإذا به يعتصم بالصبر وقوّة الجلد، لذا فهو لا يشكو ما ينزل بساحته من النوائب والمصائب، وهكذا تمرّ، ولكنها تترك في نفسه أثراً. عجباً لأمر المتنبي كلّ هذه الشكوى ولا يشكو!!.

(٣) العلى: المكانة الرفيعة، القتلة: المرّة من القتل. يرى الشاعر أن كثيرين ممن تبوَّأوا المكانة الرفيعة في الحياة قد واجهوا أخطاراً ومع ذلك فقد أدركوا تحقيق أمانيهم في حياتهم، وفي المقابل فالكثير من البشر لم يحقّقوا شيئاً لجبنهم وضعف هممهم، وهم دائماً معرّضون للموت في كلّ وقت رغم اعتقادهم بأن خوفهم من المخاطرة يحميهم من الموت المحتم.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. المضيم: المظلوم. البزّة: اللباس. راق: أعجب. الدفين: المدفون في التراب. الكرامة أعلى مراتب التحرّر من ربقة الذلّ والهوان، فبعض الخلق يرى في هنأة العيش في ظلّ العيش بهوان ومذلّة هو خير وسيلة لحياة فضلى؛ الإشكالية المقترحة من قبل الشاعر هل يُعجب على من كان ميتاً حيًّا أن يرتدي اللباس الحسن.

(٥) أخلف الأمر: لم يُنجزه. أقتضي: أطالب. مطله حقه: لم يقضه بالتسويف. يشكو =

مَـدَحْـتُ قَـوْمـاً وَإِنْ عِـشْـنَـا نَـظَـمْـتُ لَـهُـمْ
قَـصَـائِـداً مِـنْ إِنَـاثِ الـخَـيْـل وَالْـحُـصُـنِ(١)
تَـحْـتَ الْـعَـجَـاجِ قَـوَافِـيـهَـا مُـضَـمَّـرَةٌ
إِذَا تُـنُـوشِـدْنَ لَـمْ يَـدْخُـلْـنَ فـي أُذُنِ(٢)
فَـلَا أُحَـارِبُ مَـدْفُـوعـاً إِلَـى جُـدُرٍ
وَلَا أُصَـالِـحُ مَـغْـرُوراً عَـلَـى دَخَـنِ(٣)
مُـخَـيِّـمُ الْـجَـمْـعِ بِـالْـبَـيْـدَاءِ يَـصْـهَـرُهُ
حَـرُّ الـهْـوَاجِـرِ فـي صُـمٍّ مِـنَ الْـفِـتَـنِ(٤)

= الشاعر إلى اللَّه سبحانه عدم بلوغه مراده من هذه الحياة، فالدهر يُماطله فلا يُنجز مبتغاه، وهو دائم التسويف، ومع ذلك فالشاعر لا يريم يسعى جاهداً بكلّ ما أوتي من قوّة وصبر، ولكن الشاعر لو أحسن التفكير لاقتنع أنه قد وفّق لما رضيه اللَّه تعالى له، ولكنه للأسف لم يرض.

(١) الحصن، الواحد حصان: الذكر الفحل من الخيول. يذكر الشاعر أنه مدح من الملوك من لا يستحقّ، فالبخل رائدهم، أشحاء على الخير جهلاء فلا يُحسنون التقدير، وجزاؤهم أن يغزوهم بجيش قوامه خيول إناث وذكور، ورغم أنه غير قادر على ذلك فسوف يهجوهم ويندّد بهم. إنه حال عجيب.

(٢) العجاج: الغبار. المضمّر من الجياد: المعدّ للسباق. يصف قصائد الهجاء، إنها قوافٍ تسابق الزمن والمكان تندّد بأمثال هؤلاء الملوك والأمراء فإذا تنوشدت الآذان، بل هي خيول حقيقية تسفك الدماء وتُعيث في الأرض الفساد وتنشر جثث هؤلاء فيها.

(٣) الجُدُر، الواحد جدار: الحائط. الدخن: الفساد. يتحدّث الشاعر عن سياسته القتالية، فهو لن يُحارب من احتمى بالحصون وراء جدرها، وكذلك فلن يُصالح من يعمل على مسالمته، وهو يُخفي عداءً وشحناء للشاعر، وذلك شدّة حرص منه كيلا يُخدع.

(٤) الهواجر، الواحدة هاجرة: حرّ الظهيرة. البيداء: الصحراء. الصمّ: الشديدة. يُردف الشاعر متمًّا ما يودّ أن يقوم به. فسوف ينشر جنوده في الصحراء وينصب الخيام في هاجرة النهار حيث الشمس تلهب كل شيء، هناك سوف تكون فتن عظام شديدة الوقع على أعدائه.

أَلْـقَـى الـكِـرَامُ الأُلَـى بَـادُوا مَـكَـارِمَـهُـمْ
عَـلَى الـخَـصِـيبِيِّ عِـنْـدَ الـفَـرْضِ وَالـسُّـنَـنِ[١]
فَـهُـنَّ فِـي الـحَـجْـرِ مِـنْـهُ كُـلَّـمَـا عَـرَضَـتْ
لَـهُ الـيَـتَـامَـى بَـدَا بِـالـمَـجْـدِ وَالـمِـنَـنِ[٢]
قَـاضٍ إِذَا الْـتَـبَـسَ الأَمْـرَانِ عَـنَّ لَـهُ
رَأْيٌ يُـخَـلِّـصُ بَـيْـنَ الْـمَـاءِ وَالـلَّـبَـنِ[٣]
غَـضُّ الـشَّـبَـابِ بَـعِـيـدٌ فَـجْـرُ لَـيْـلَـتِـهِ
مُـجَـانِـبُ الْـعَـيْـنِ لِـلْـفَـحْـشَـاءِ وَالْـوَسَـنِ[٤]
شَـرَابُـهُ الـنَّـشْـحُ لَا لِـلـرِّيِّ يَـطْـلُـبُـهُ
وَطَـعْـمُـهُ لِـقِـوَامِ الْـجِـسْـمِ لَا الـسِّـمَـنِ[٥]

(١) بادوا: هلكوا. ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٣. يتخلّص الشاعر إلى الممدوح بعد هذه المقدّمة. لقد آلت إلى الممدوح فوائض أجداده الكرام من علم ورثه الخصيبي عنهم، فضلاً عن كرم الأخلاق والجود، إضافة إلى فروض الدين وسننه، وقد ألزم نفسه بالسير على خطط أجداده في كلّ شيء.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٧. الحجر: المنع والصون. المنن، الواحدة منّة: النعمة. يصف الشاعر ما اعتاد عليه ذلك القاضي، فما ورثه عن أجداده من مواهب وفضائل وظّفها لحماية اليتامى بالقيام على حمايتهم وتأمين حياتهم والحدب عليهم، فكان خير كافل لأمثال هؤلاء.

(٣) عنّ: بدا. مدح الشاعر ممدوحه بأنه ألمعيّ جدّ ذكيّ بإمكانه أن يجد لكل مشكلة حلّها الذي يتوافق ويتماشى مع روح الشرع، وإذا التبست مشكلة مستعصية على سواه من القضاة استخلص منها ما يُصيب كبد الحقيقة، لذا فبإمكانه أن يفصل بين الماء واللّبن.

(٤) ورد البيت في مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٥٦٢. غضّ الشباب: لين الشباب وميعته. الوسن: النوم. يصف الشاعر القاضي بأنه في ميعة شبابه، يقضي ليله ساهراً يبتغي العلم والمعرفة كما يبتغي مرضاة ربّه سبحانه صلاة وقياماً وتفكيراً بملكوت السماوات والأرض، ولا يلتفت إلى ملاذ الدنيا ساهراً معربداً، كما أنه لا يدنو من محارم اللّه تعالى، فهو يغضّ نظره عمّا حرّمه اللّه تعالى.

(٥) النشح: الشرب القليل. يعرّج الشاعر على وصف مشرب القاضي، إنه نشح قليل، فلا يرتوي، بل يكتفي بالقليل منه، كما أنه لا يُكثر من الطعام فيكتفي بالقليل منه.

أَلْـقَـائِـلُ الـصِّـدْقَ فِـيـهِ مَـا يَـضُـرُّ بِـهِ
وَالْـواحِـدُ الـحَـالَـتَـيْـنِ الـسِّـرِّ وَالْـعَـلَـنِ[١]
أَلْـفَـاصِـلُ الـحُـكْـمَ عَـيَّ الأَوَّلُـونَ بِـهِ
وَالـمُـظْـهِـرُ الـحَـقَّ لِـلـسَّـاهِـي عَـلَـى الـذِّهِـنِ[٢]
أَفْـعَـالُـهُ نَـسَـبٌ لَـوْ لَـمْ يَـقُـلْ مَـعَـهَـا
جَـدِّي الـخَـصِـيـبُ عَـرَفْـنَـا الـعِـرْقَ بِـالـغُـصُـنِ[٣]
الْـعَـارِضُ الْـهَـتِـنُ ابْـنُ الْـعَـارِضِ الْـهَـتِـنِ ابْـ
ـنِ الْـعَـارِضِ الْـهَـتِـنِ ابْـنِ الْـعَـارِضِ الْـهَـتِـنِ[٤]
قَـدْ صَـيَّـرَتْ أَوَّلَ الـدُّنْـيَـا وَآخِـرَهَـا
آبَـاؤُهُ مِـنْ مُـغَـارِ الْـعِـلْـمِ فِـي قَـرَنِ[٥]

---

(١) يمدح الشاعر في القاضي صفاء السريرة، فهو لا يُحسن الكذب بل يصدق على الدوام، ولو كان فيه ضرر شخصيّ له، وهو نقي السريرة فلا يتظاهر بخلاف ما يبطن، صريح في قوله.

(٢) فصل الحكم: أعطى رأيه فيه بجلاء ووضوح. عيي بالأمر: عجز عن الوصول إلى حلّ شافٍ فيه، الساهي: الغافل. الذهن: الفطن الحاد الذكاء. يُردف الشاعر حديثه عن القاضي إنه يأتي بالرأي الصائب الفصل في ما أشكل على سواه من القضاة السابقين، كما أنه يتمتّع بحسّ العالم السهل، فهو يُوضح للساهي ما غمض عليه من مسألة فيُعطي رأيه في المسألة بجلاء ووضوح.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٦. يمدح الشاعر القاضي بحسن فعاله وكريم خلقه، وهذا يكفيه أفضل نسب، ولكنه ينتسب إلى شجرة في النسب عالية شامخة، ممّا يزيده احتراماً وفخراً، ومع ذلك فهو لا يُذكّر بنسبه تواضعاً، وهذا ما يرفع من مكانته في قلوب الناس. إنها شجرة ذات أغصان ندية.

(٤) و (٥) العارض الهتن: السحاب المعترض في السماء. الهتن: المنهمر بغزارة. يمدح الشاعر أجداد القاضي، فكلهم على شاكلته كرماء أجواد، توارثوا فضائلهم أباً عن جدّ؛ فكانوا علماء يتوارثون العلم، أصوله وفروعه، ومع مرور الأيام يستزيدون من معينه قدرة وطاقة، فإذا بهم يحيطون بكلّ صغيرة وكبيرة حفظاً ودراية، مع إحكام لأصوله وفروعه، وسعة بمعرفة التاريخ واستنباط الأحكام منه.

كَـأَنَّـهُـمْ وَلِـدُوا مِـنْ قَـبْـلِ أَنْ وُلِـدُوَا
أَوْ كَـانَ فَـهْـمُـهُـمُ أَيَّـامَ لَـمْ يَـكُـنِ (١)
الْـخَـاطِـرِيـنَ عَـلَـى أَعَـدَائِـهِـمْ أَبَـداً
مِـنَ الْـمَـحَـامِـدِ فِـي أَوْقَـى مِـنَ الـجُـنَـنِ (٢)
لِـلـنَّـاظِـرِيـنَ إِلَـى إِقْـبَـالِـهِ فَـرَحٌ
يُـزِيـلُ مَـا بِـجِـبَـاهِ الْـقَـوْمِ مِـنْ غَـضَـنِ (٣)
كَـأَنَّ مَـالَ ابْـنِ عَـبْـدِ الـلَّـهِ مُـغْـتَـرَفٌ
مِـنْ رَاحَـتَـيْـهِ بِـأَرْضِ الـرُّومِ وَالـيَـمَـنِ (٤)
لَـمْ نَـفْـتَـقِـدْ بِـكَ مِـنْ مُـزْنٍ سِـوَى لَـثَـقٍ
وَلَا مِـنَ الْـبَـحْـرِ غَـيْـرَ الـرِّيـحِ وَالـسُّـفُـنِ (٥)

(١) يُردف الشاعر متمّماً فكرته، أن التاريخ لم يعد أرقاماً بل أصبح أداة استنباط لأحكام تتعلق بأمور الدين، وللوهلة الأولى يعتقد المرء أنهم قد ولدوا في الأيام الغابرة تلك الأيام بأدق تفاصيلها رغم مرور الزمن عليها.

(٢) خطر الرجل: مشى متبختراً. أوقى: أحفظ. الجنن، الواحدة جنة: كلّ ما خبئ من سلاح وسواه. يمدح في هؤلاء القوم عزّتهم وشموخهم وتبخترهم على أعدائهم وذلك من المحامد، ولا يعني ذلك أنهم يتعاملون مع أحبابهم بنفس المقياس، بل العكس صحيح، إنهم في منتهى التواضع معهم، ومع ذلك فأعراضهم موفورة.

(٣) الغضن: تكسّر الجلد. يمدح الشاعر ما يمتاز به القاضي من أنس، فإذا ما أطلّ بوجهه النيّر سرّ الناس رؤيته وعمهم فرح عظيم بطلعته، فإذا بالمحزون منهم تغطّي وجهه بسمة عريضة فتنير وجهه بعد عبوسه وتجهّمه.

(٤) يمدح الشاعر القاضي بكرمه الفيّاض الذي يعمّ سائر الناس، فلا يُميّز بينهم في العطاء، ولقد تخطّى جوده كلّ الحدود القريب منها في بلاد الروم والبعيد عنها في بلاد اليمن.

(٥) المزن، الواحدة مزنة: السحابة المليئة ماءً. اللثق: الوحل الناتج من اختلاط الماء بالتراب. يُتابع الشاعر حديثه عن كرم الممدوح، إنه خالص من كل ما يشوّهه، إنه سحاب لا ينتج عنه ما يُكدّره، فهو يُحيي الأرض فلا يُوجد فيها ما يُفسد ذلك العطاء، وهو بحر دون تعريض المتعرّض له للخطر، فلا تمخر عُبابه سفن أو تُثير فيه الرياح عواصف تُؤذن بخطر داهم: فبحره هادئ وادع.

وَلا مِـنَ الـلَّـيْـثِ إِلّا قُـبْـحَ مَـنْـظَـرِهِ
وَمِـنْ سِـوَاهُ سِـوَى مَـا لَـيْـسَ بِـالْـحَـسَـنِ (١)
مُـنْـذُ ٱحْـتَـبَـيْـتَ بِـأَنْـطَـاكِـيَـةَ ٱعْـتَـدَلَـتْ
حَـتَّـى كَـأَنَّ ذَوِي الأَوْتَـارِ فِـي هُـدَنِ (٢)
وَمُـذْ مَـرَرْتَ عَـلَـى أَطْـوَادِهَـا قُـرِعَـتْ
مِـنَ الـسُّـجُـودِ فَـلَا نَـبْـتٌ عَـلَـى الْـقُـنَـنِ (٣)
أَخْـلَـتْ مَـوَاهِـبُـكَ الأَسْـوَاقَ مِـنْ صَـنَـعٍ
أَغْـنَـى نَـدَاكَ عَـنِ الأَعْـمَـالِ والـمِـهَـنِ (٤)
ذَا جُـودُ مَـنْ لَـيْـسَ مِـنْ دَهْـرٍ عَـلَـى ثِـقَـةٍ
وزُهْـدُ مَـنْ لَـيْـسَ مِـنْ دُنْـيَـاهُ فِـي وَطَـنِ (٥)

---

(١) الليث: من أسماء الأسد. يمدح الشاعر القاضي بشجاعته وقوته وقدرته على ركوب الأخطار؛ إنه أسد في مزاياه وصفاته، ولكنه يمتاز بالجمال على عكس الأسد القبيح المنظر، ومن حسن الظنّ أن مظاهر الحسن والخير مجتمعة فيه، ممّا يعني اختفاء أضداد سائر المحاسن.

(٢) الاحتباء: جلوس القرفصاء. الأوتار، الواحد وتر: الثأر. الهدن، الواحدة هدنة: سكون الحرب بين المتحاربين. يمدح الشاعر نهج القاضي في الأحكام بعدل، فمنذ نزوله في أنطاكية تغيّر حال المدينة، فإذا بسكانها ينعمون بالسلام، حتى ذوي الأوتار قد استكانوا وكأنه لم يكن بينهم ما يُوجب بثّ الأحقاد في النفوس.

(٣) الأطواد، الواحد طود: الجبل العظيم. قرعت: انحسر ما عليها من نبات. القنن، الواحدة قنّة: القمم، يخاطب الشاعر القاضي بأنه منذ مروره على جبال تلك الأنحاء، فإذا بها تتلقى رأسه بخشوع في صلاته مما جعل نباتها ينحسر عن قممها فتبدو قرعاء لشدّة هيبته.

(٤) الصنع: الماهر في صناعته. المهن، الواحدة مهنة: العمل اليدوي. يُنوّه الشاعر بجود القاضي، فقد عمّ عطاؤه الناس جميعاً، حتى المهرة في صناعاتهم ما عادوا يعملون في مهنهم لشمولهم عطاء القاضي. وفي ذلك تعطيل لقدرات الصناعيين في أعمالهم في حال توقفهم عن أعمالهم.

(٥) يُعقّب الشاعر على جود القاضي، إنه يُعطي بلا حساب دون أن يتوقّع مفاجآت سيّئة، =

وَهَـذِهِ هِـمَّـةٌ لَـمْ يُـؤْتَـهَـا بَـشَـرٌ
وَذَا اقْـتِـدَارُ لِـسَـانٍ لَـيْـسَ فـي الـمُـنَـنِ[١]
فَـمُـرْ وَأَوْمِـئْ تُـطَـعْ قُـدِّسْـتَ مِـنْ جَـبَـلٍ
تَـبَـارَكَ الـلَّـهُ مُـجْـرِي الـرُّوحِ فـي حَـضَـنِ[٢]

النفيس غريب حيثما كان

يمدح أخاه أبا سهل سعيد بن عبيد اللَّه بن الحسن الأنطاكي:

[البسيط]

قَـدْ عَـلَّـمَ الْـبَـيْـنُ مِـنَّـا الْـبَـيْـنَ أَجْـفَـانَـا
تَـدْمَـى وَأَلَّـفَ فِـي ذَا الْـقَـلْـبِ أَحْـزَانَـا[٣]
أَمَّـلْـتُ سَـاعَـةَ سَـارُوا كَـشْـفَ مِـعْـصَـمِـهَـا
لِـيَـلْـبَـثَ الْـحَـيُّ دُونَ الـسَّـيْـرِ حَـيْـرَانَـا[٤]

= فغدرات الزمن تستوجب من البشر الحذر والاحتفاظ بقدر من المال للحظة كهذه، والقاضي زاهد في هذه الدنيا؛ فمتاعها زائل، إنه يبتغي مرضاة اللَّه سبحانه ويُعدّ لمغادرة الدنيا إلى نعيم لا يزول.

(١) يروى «هيبة» بدلاً من «همّة». المنن، الواحدة منة: القوّة. يُخاطب الشاعر القاضي بأنه يتمتّع بهيبة قلّ نظيرها، فقلوب الناس تهفو إليه حباً وتبجيلاً واحتراماً، وهو ذو منطق ندر مثيله لفصاحته وبلاغته بين بني جلدته.

(٢) حضن: جبل في نجد. يطلب الشاعر من القاضي أن يحكم بين الناس فيأمرهم وهم رهن أوامره يمتثلونها طائعين راغبين، إنه بمثابة جبل شامخ ذي روح في ثباته ووقاره ورزانته، وفي الأخير لا ينسى أن يدعو اللَّه تعالى للقاضي بحسن التوفيق والرعاية.

(٣) البين: البعد. يبدأ الشاعر قصيدته المدحيّة بمطلع غزليّ. لقد كان للبين أثره العميق في نفس الشاعر، فإذا بأجفانه لشدّة بكائه تبدو دامية، وقد صبغها الدم بلونه، فبدا ذلك في عينيه ووجهه، ولقد ترك في قلبه جراحاً أليمة وأحزاناً.

(٤) المعصم: موضع السوار من اليد. يلبث: يُقيم. الحيّ: القوم الماكثون والراحلون. انزوى الشاعر في مكان خفيّ ينظر إلى الركب يتحمّل للمسير آملاً أن تمدّ حبيبته معصمها مودّعة فتبدو له ويتملّى من رؤيتها لآخر مرة، وقد لا يكون لقاء بعد.